الزهراء والحسن

السيدة العظيمة فاطمة الزهراء التى لم تتجاوز أواسط العقد الثانى من عمرها إن نسبت فإلى أسمى عنصر وإن انحدرت فمن أطهر صلب ، تعيش فى أكرم بيت بعيد عن الأرجاس تشملها عناية رجل يهمها من وقته ما يكفل تربيتها كما يريد لها لا كما تريد البيئة الضالة ، إنها قرة عين الرسول صلى الله عليه وسلم وبضعته تتطلع إلى ما يجتاح الجزيرة بحذر وتلاحظ ما يدور حول رسالة أبيها وما يعترضها من مصاعب بيقظة ، فترى تمرد المتمردين وتعنت المتعنتين ثم تختزن ذلك كله فى حشًى متأثر يتسع للإحساس ، على حين تكون نفسها ثملة بنشوة الدين الجديد أو متألمة لما يلقاه حماتُه بسبيله مسلمةً إلى الله ، تجتاز هى هذه المراحل فتترسب آثارها فى أعماقها وتستقر متبلورة فى حشاها الذى يحتفظ بالحسن جنيناً . . فتحمل فى قرارة نفسها توأمين اثنين : الجنين والأحاسيس اللذين يتفاعلان بحكم الطبيعة وينصهران فى بوتقة واحدة ، فيتأثر الجنين كما تتأثر الزجاجة فى آلة التصوير ، وينمو منكمشاً على نفسه إلى أن يخرج إلى هذه الدنيا بعد وقعة بدر ، وفى نفسه كل ما فى نفس أمه الجائشة لما يلقاه أبوها وبعلها والأنصار من ألوان التعنت وويلات الحرب الدائمة ، فهو إذن ينفعل بحكم طفولته ومرونة عقله ولين طباعه بصورة مستمرة .

فقد كان يكتنف حياة الزهراء التأمل العميق لأنها في تماس دائم مع حوادث تغير توجيهها من اللامبالاة والبشر إلى التفكر والكمد ، ومن الغبطة والانشراح إلى التبتل والتسليم ، فتضع وليدها على هذا الشكل وفي هذا الجو فإذا هو لا يقل عنها اتزاناً لما مازج تكوينه من حياة أمه ، فجاء مؤمناً وادعاً طلقاً قلقلاً تتردد حالاته بين طرفي هذه الأضداد وفي مداها دون أن يتجاوز أحدها .

وتبدأ بغرس التعاليم في نفسه لتجعلها صافية ولتصرفه بكليته إلى السماء ، فينشأ مجبولاً على طبائعها فضلاً عما أوتيه من شبه بها في الخلق ، لأنهما – كما روى – صورة عن النبي ناطقة القسمات والملامح فيبدو مفطوراً على ما نسجته أمه وظروفه ومحيطه في نفسه ، فقد أخذت الأم بتلابيبه – ولم تفتر عن رعايته وتوجيهه توجيهاً دينياً خلقياً ، بل أعطته جل وقتها – وهو الولد الأول – وعملت على ترقية عقله وتقوية جميع جهاته المعنوية والفكرية .[1]

ومن المعروف أن التربية الاجتماعية الحقة تبدأ في عهد الأمومة حيث يمارس الولد المحبة والطاعة والمحافظة على الواجبات والحقوق ، ويفهم تفاوت الدرجات بين أفراد الجنس ويغتذى بالمبادئ الأولية للعقيدة ، لذا كانت الزهراء تعنى بولدها كثيراً لأنها تخاف عليه من مستقبل جائر يصفه جده – وجده لا ينطق عن الهوى ، وكانت تتعلق به وبأخيه إلى حد تضطرب معه إذا فارقاها أو انصرفا عن البيت إلى غير جدهما أو أبيهما ، فهي تلازمهما لتنشئ فيهما المعرفة والآداب ولتحليهما بالعادات الحسنة .

---

(١) الحسن بن علي للأستاذ كامل سليمان .

وكانت وفاة الزهراء فاجعة ثقيلة على الحسن والحسين ، لأن عهدهما معهـا كان فترة من الزمن قصيرة ولكنها بالرغم من قصر المدة تمكنت أن تجعل الحسن كما جعلت أخاه طفلاً مهذباً متمرساً بفكرة الله والدين ، كيف لا وقد ربيا ونشآ فى ظل رجلين وامرأة هم أعظم من أظلت السماء .

يقـول الحسن فى إحدى المناسبات (رأيت أمى فاطمة فى محرابها راكعة تدعو للمؤمنين والمؤمنات وتسميهم وتكثر الدعاء لهم ولا تدعو لنفسها بشىء فقلت لها يا أماه ألا تدعين لنفسك كما تدعين لغيرك ؟

فقالت : يا بنى – الجار ثم الدار – فعلى مثل هذا المشهد كانت تتفتح عينا الطفل للنور .

دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الزهراء مرة فقالت له : يا أبه إن لنا ثلاثاً ما طعمنا طعاماً وإن الحسن والحسين قد اضطربا علىّ من شدة الجوع ثم رقدا كأنهما فرخان ، فأيقظهما النبى صلى الله عليه وسلم وأجلسهما على فخذيه وجعل أمهما بين يديه وعليًّا بجانبهما واعتنقهم جميعاً ورفع رأسه نحو السماء وقال : (هؤلاء أهل بيتى – اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً . .) فطابت النفوس لهذا الدعاء وأحست ببرده وسلامه . وانحدرت دموع التسليم على الوجوه النضيرة – ولامست بركة الجد الولدين فأحسا بلطف خفى يروض نفسيهما ويروح قلبيهما . فنظرا إلى ثلاثة من حولهما قد عمر قلوبهم الإيمان فانطلق من وجوههم نور شكل هالة متلألئة فارتعشا للمنظر المدهش واهتزا له – ثم قرّا وسكنا – وخيمت عليهم جميعاً الرحمة فوجموا

وجوم التهيب والهلع من رب عظيم يخاطبه نبيّ كريم ، ونظر الحسن بعين بصيرته فرأى نفوساً نقية من كل شرك مطهرة من كل دنس ، ففرق كما فرقت وهدأ كما هدأت وأسلم وبايع جده وعاهد الله على ذلك فى تلك الخلوة الرائعة .

وراح هذا المشهد مع من راح – وبقى الحسن يميزه من جميع مفارقاته لأنه وإن فارق الجد والأم وهو فى الثامنة من عمره قد كان فى مرتبة من التعقل والتفهم لا يشاركه فيها كثيرون من أبناء هذه السن إذ اكتملت فيه جميع عناصر الاستعداد الصحيح ومقومات الفكر الراجح .

خرج الحسن مرة وعاد فوجد أمه قد فارقت الحياة فوقع عليها يقبلها ويبكى وشيع أنبل وأشرف أم وعـــاد يتيماً من جده العظيم وأمه محروماً إلا من رحمة الله وأبيه – رجع ليستظل ببيت ليس فيه جد رحيم ولا أم رءوم ولينطوى على نفسه ، ولكن أباه لم يجعل لليأس إلى قلبه سبيلاً بل انتشله من ذل المصيبة واليتم وجعله فى كنف وارف وظل ظليل .